مجلة العلوم الإنسانية عدد 15 جوان (2001)، 89-110

المرأة الجارية و دورها الإجتماعي و الثقافي في المجتمع العربي الإسلامي من خلال كتابات الجاحظ.
-المجتمع العباسي نموذجا-

د. يوسف غيوة
قسم اللغة العربية و أدابها
جامعة منتو ري
قسنطينة، الجزائر

ملخص

تعددت أدوار المرأة الجارية في المجتمع العربي الإسلامي، و تفاوتت من حيث الخطورة و الأهمية، و بخاصة في العصر العباسي عندما طغت على الحياة الاجتماعية بفرضها نمط حياتها و سلوكها، و شاركت في الحياة الثقافية، بما توفر لها من أسباب التعليم، و أسهمت في رسم المسار السياسي للدولة باعتلاء أبنائها عرش الخلافة.

و لئن أخذت المرأة الجارية حيزا من اهتمام المؤرخين و الأدباء، فإنها كانت دائمة الحضور في كتابات الجاحظ، المصور البارع للمجتمع العباسي من ثم تأتي أهمية هذا الموضوع الذي اخترناه للبحث.

Résumé

Les rôles de la femme esclave se multiplient dans la société arabo-musulmane, notamment à l'époque abbasside; ils se caractérisent par l'importance des fonctions qui lui sont attribuées, leur mode de vie et leur comportement spécifique qui leur confèrent le rôle de participer à la vie culturelle et collaborer à l'orientation de la politique de l'état en aidant les siens à monter sur le trône de la Kalifat.

Malgré la présence du thème de la femme esclave dans les textes des historiens et des hommes de lettres, l'espace qu'elle occupe dans les écrits d'al Jahis lui donne une dimension importante, à travers ses descriptions et brosse une image fidèle de la société abbasside : c'est la raison de l'importance de cette recherche.

لم تحظ المرأة بقدر من اهتمام من كاتب عربي قديم، كما حظيت به لدى أبي عثمان الجاحظ، حيث خصها بكثير من القصص و الأخبار و الملاحظات و الإشارات التي تضمنتها كتبه العديدة، على اختلاف موضوعاتها و تباين مقاصدها.

و من المحاور الكبرى في موضوعات المرأة التي نالت قدرا وافرا من جهود أبي عثمان، الأنماط و الفئات، و بخاصة فئة الجواري، موضوع هذا البحث. و لئن كانت مقارباته في هذا المجال لا تضع حدودا مكانية، أو فواصل زمنية، لتميز بين جارية هذا العصر و جارية ذاك. فإن جارية عصره، أي عصر دولة بني العباس نالت القسط الأكبر من جهوده واهتماماته، ذلك أن هذا العصر شهد انقلابا حقيقيا في حياة هذه الفئة من نساء المجتمع العباسي، و تغيرا جذريا في مكانتها داخل الأسرة و المجتمع و الدولة، و ذلك بتعاظم حجمها في السياسة و الثقافة و الإبداع و الذوق و المعاش

و السلوكات و الممارسات، مما أتاح لها لعب أخطـــر الأداور فـــي حيـــاة الدولـــة و المجتمع.
فبعد أن استقر أمر الدولة العباسية، و عادت شمس الأعاجم إلى الشروق، بحكـــم قيام هذه الدولة على أكتافهم، أصبح يتوافد على عواصم الدولة عدد كبير من الرقيـــق بجنسيه، و أشتد الإقبال على اتخاذ الجواري و الغلمان، لاســـتعمالهم فـــي أغـــراض مختلفة. و تنافس الناس في اقتناء الجواري، و تباهوا بـــالفوز بـــأنضرهن وجـــها، و ونداهن صوتا، و أمثلهن أدبا. و أصبح ما يملكه الرجل من الطبقتين العليا و الوســطي من جوار و غلمان من الأمور التي تقدر على أساسها ثروته. و قد عبر الجاحظ عـــن ذلك بقوله: ((وإن هو ابتاع فرّه الدواب و فرّه الخدم، و الجـــواري، و اتخـــذ الـــدار الجيدة، و الطعام الطيب، و الثوب اللين و أشباه ذلك، فقد دل على ماله)). (1)
و كان الناس في ذلك إنما يقلدون طبقة الخلفاء و الوزراء و الأمـــراء، الذيـــن كـــانوا يجمعون في قصورهم مجموعات عجيبة من الجواري، و ما و صل إلينا مـــن ذلـــك يفوق كل ما يتصوره العقل. و كان الإمام في هذا المتوكل في هـــذا المتوكـــل الـــذي يروى أنه كان يملك أربعة آلاف جارية. (2) كما روى أنه أهديت إليه في يوم واحـــد عشرون ألف جارية (3). كما نقل الدكتور شوقي ضيف (4) عن صاحب الأغـــاني أن الرشيد و زوجة أم جعفر كان لكل منهما زهاء ألفي جارية في أحسن زي من الثيـــاب و الجوهر.
و مع ميلنا إلى الاعتقاد في مبالغة هذه الأرقام، إلا أنها من شأنها أن تعطينا دلائـــل على الأعداد الهائلة من الجـــواري، التي كانت تزخر بها قصـــور الخلفاء و الســـراة. و بخاصة إذا علمنا أن قواد الدولة، و ولاة الأمصـــار كانوا يجمعون أحسن الجـــواري و أتمهن، و يرسلون بهن إلى الخلفاء و الوزراء، بغية التقرب منهم و نيل رضاهم.
فلا عجب إذن، إذا اشتد الإقبال على الجواري و الغلمان، حتى أصبحت تخصـــص لهذه التجارة الرابحة أسواق، تنتشر بعواصم الأقاليم، كالكوفة و البصرة بـــالعراق، و مكة و المدينة بالحجاز، فضلا عن التي كانت ببغداد، و تعرض فيـــها أجنـــاس مـــن الجواري و الغلمان، متباينة في الخلقة و الطباع.
و كانت القوافل الوافدة من الأقاليم التابعة للدولـــة تحمـــل الكثـــير مـــن الفاتنـــات الفارسيات و الخراسانيات، الروميات، و الهنديات، و الأرمنيـــات، و التركيـــات، و البربريات، و الحبشيات و كان لكل جنس من هؤلاء خصائصه، و مواصفاته، التـــي تحددّ ثمن الواحدة منهن. و كمثل على هذا، فإن الجارية الواحدة في غير صنعة تبـــاع بألف دينار و أكثر(5).
و قد نقل آدم متز صورا عن هؤلاء الجواري، بيّن من خلالـــها خصـــائص كـــل جنس منهن، و كشف عن نقاط الحسن و القبح فيهن(6) ثم أخـــذ أحمـــد أميـــن تلـــك الصور، و أضاف إليها صورا أخرى، ليصل بعد ذلك إلى المثل الأعلى للجارية الـــذي حدد ملامحه بقوله: ((و المثل الأعلى للجارية كما قال أبو عثمان الدلال: أن تكون من أصل بربري فارقت بلادها، و هي في التاسعة من عمرها و مكثت ثلاث سنين فـــي

المدينة، ومثلها في مكة ثم رحلت إلى العراق في السادسة عشرة من عمرها لتثقف بثقافته، فإذا بيعت في الخامسة و العشرين كانت قد جمعت بين جودة الأصل، و دلال المدنيات ورقة المكيات، و ثقافة العراقيات)) (7).

و يبدو أن سوق الرقيق لم تكن تختلف كثيرا عن أسواق الماشية في عصرنا، إذا كان الناس يغدون و يروحون إليها يتفرجون على الوافدات من الجواري، ثم يقدرون الثمن الذي تستحقه كل جارية، بعد عملية الفحص و المساومة. و قد نقل الجاحظ صورة صادقة عن تلك العملية، فقال: ((فإن الرقيق تجارة من التجارات تقع عليه المساومات و المشارات بالثمن...يجب فيه خيار الرؤية المشترك في جميع البياعات* و إن كان لا يعرف مبلغة بكيل و لا وزن و لا عدد و لا مساحة، فقد يعرف بالحسن و القبح)) (8).

لكن هذه التجارة سرعان ما تطورت أساليبها، و اتسعت دائرتها فلم تعد تتم في الأسواق فحسب، بل أصبحت تخصص لها مواسم يعرض فيها، ما جلب من الرقيق بأنواعه و أشكاله، و أصبح النخاسون يترقبون هذه المراسم ليعرضوا فيها بضاعتهم. و أدى بهم ذلك إلى التفنن في عملية العرض، و إلى استعمال الحيل في إبراز محاسن جوار تهم، و إخفاء عيوبهن. و كانوا إلى جانب ذلك يعلمونهن الأساليب المناسبة لاستمالة أهواء المشترين و جذب أنظارهم (9).

و لم تمض فترة طويلة على هذا التطور الخطير في حياة المجتمع العباسي، حتى ظهر تقليد جديد، تمثل في التهادي بالجواري. و لم ينحصر في وسط الرجال. إذا امتد إلى علم النساء، ليشهد ترا غريبا، أصبحت النساء بموجبه يهدين أحسن الجواري و أتمهن لأزواجهن، كالذي فعلته زبيدة لما أهدت زوجها الرشيد عشر جوار، منهن ماردة أم المعتصم، و مراجل أم المأمون، فاردة أم صالح (10).

موقف الجاحظ من الجواري:

و لأهمية موضوع الجواري، و خطورة أدوارهن في حياة المجتمع العباسي، أهتم به الجاحظ، و خصه بقسط كبير من كتاباته التي تناولت موضوع المرأة، حيث تناول جميع الجوانب من حياة الجواري و القيان، فجاءت دراسته شاملة في هذا الموضوع، و بخاصة أنها ناتجة عن تجربة ذاتية، مبنية على دارية تامة، أتاحها له احتكاكه المباشر بالجواري، ليس في قصور وزراء الدولة و أمرائها فحسب، بل و في دور المقينين، وبيوت النخاسين، التي كانت منتشرة بالبصرة و بغداد، و كان يرتادها بانتظام.

و يتخلى اهتمام الجاحظ بالجواري و القيان، فيما أفرده لهن من رسائل و كتب (مفاخرة الجواري و الغلمان، القيان) و قد أدى هذا ببعض الدارسين لأدبه إلى القول بأن المرأة التي يصورها في مؤلفاته، من المجتمع العباسي، هي المرأة الجارية (11).

و لعل أول شيء أثار اهتمام في عالم الجواري و القيان، هو تعدد أجناسهن و اختلاف إشكالهن. و قد استوقفه نوع غريب عن بيئته العراقية، كان معروفا في مصر

باسم بغلات مصر، فسجل ذلك هذا الحديث: ((والبغلات: جوار من رقيق مصر، نتاج ما بين الصقالبة و جنس آخر، و الواحدة منهن يقال لها : "بغلة " و لهن أبدان و وثارة و جدارة. (12)

و قد أثار اهتمامه الاسم الذي يطلقه أهل مصر على هذا النوع من الجواري، كما يتضح من القصة التي نسبها إلى أحد العراقيين و التي جاء فيها "و يروي عن بعض العراقيين، قال : كنت عند قاضي مصر، و هو يقول لبعض جلسائه: عندي جارية أطؤها منذ حين، و قد اعتراني شبق، و على أن أشتري بغلة. قلت: و ما تصنع ببغلة؟ قال :أطؤها. و أصيب منها. فقلت في نفسي: هذا أمجن الناس و أحمقهم، يتكلم بهذا و هو قاض ؟! ثم حكيت ذلك عند رجل من أهل مصر، فقال عافاك الله ما منا من أحد، إلا و عنده بغلات، فتعجبت، فلما رأى إنكاري ذلك، فسر لي معنى البغلة عندهم " (13).

و ليس نوع البغلات، هو النتاج الوحيد الذي ينجبه الرجل و المرأة من عرقين مختلفين، فهناك أنواع أخرى لها ميزاتها، أثارت ملاحظة أبي عثمان، فاهتم بها حتى عرف حقيقتها و رصد محاسنها و مساوئها. و في هذا الصدد حدثنا عن نوع منها، فقال: "و قد كان أيضا بالكوفة نتاج بين الخراسانية و الهنديات، و كان أملح و أحسن قدود من البغلات اللواتي بمصر، و كانت ألوانهن تجيء، لها حلاوة الهندية، و روعة الخراسانية" (14).

إلا أن أحسن الجواري و أشهرهن، و أقربهن إلى قلوب الرجال، هن جواري مدينة البصرة، و قد عبر عن هذا بقوله: " و إنما الثمينات المرتفعات، و الغوالي الخطيرات بصريات، مثل عجوز عمير، و متيم، و بدل، و غريب، و بدل: جارية المراكبي، و شاربة جارية إبراهيم بن المهدي، وزرياب الكبرى، و عساليج: جارية الأحدب، و فضل جارية العبدي، و قبل هذا سلسل و أشباه سلسل " (15)

ولا يمكننا أن نحكم على الجاحظ بالتحيز لجواري بلده، أو بالتعصب لبيئته، لأن من ذكر من جواري البصرة، كن من أشهر من جواري المجتمع العباسي في القرن الثاني و بداية الثالث، إذا استثنينا بعض الجواري اللاتي جمتعهن عصمة الزواج.

و لا نستطيع القول بأنه يطبق هنا نظريته التي جعل بها رجال كل مصر يشتهون جواري المصر المجاوز لهم بحكم العادة و الألفة، الناتجين عن الاتصال و الاحتكاك.لأنه لم يعرف عنه أنه اقتصر على اقتناء الهنديات و بنات الأغوار، مع أنه بصري مولدا و نشأة، على الرغم مما يزعمه في قوله: " على أن الشهوات عادات و أكثرها تقليد. من ذلك أن أهل البصرة أشهى النساء عندهم الهنديات و بنات الهنديات و الأغوار. و اليمن أشهى النساء عندهم الحبشيات و بنات الحبشيات. و أهل الشام أشهى النساء عندهم الروميات. و كل قوم فإنما يشتهون جلبهم و سبيهم. إلا الشاذ، و ليس على الشاذ قياس" (16).

كما أننا لا نؤمن بالرأي الذي جعل دفاعه عن العنصر الزنجي، في رسالته: فخر السودان على البيضان، تعصبا لأصل و جنسية (17) إنما نرى ذلك من قبيل قدرته

على الدفاع عن موضوع ما، لما كان يتمتع به من قدرة جدلية فائقة. و لم يكن استحسانه نساء الزنج إلا ضربا من استعراض قوته العقلية، و براعته الجدلية. والدليل على ذلك، أنه راح يجهد نفسه في البحث عن حجج تسند أراءه في محاسن الزنجيات، و تدعم أقواله، في فضائلهن، التي جعل في مقدمتها لذة معاشرتهن، انطلاقا من تجربة الفرزدق، الذي تزوج زنجية و استحسنها، كما هو في هذا الحبر" وقد كان الفرزدق أعلم الناس بالنساء، و كان قد جرب الأجناس كلها، فلم يجد مثلهن، و لذاك تزوج أم مكية الزنجية، فأقام عليها و ترك النساء للذي و جد عندها. و في ذلك يقول:

يارب خوذ من بنات الزنج تمشي بتنور شديد الوهج
أختم مثل القدح الخلنج (18)

و من عجيب ما قاله عن الزنجيات، ما ادعاه لهن من الطيب، و بلغ به الانقياد وراء نزعته الجدلية أن جعلهن أطيب من غيرهن، حيث قال :" وهن أطيب من غيرهن" (19)؛ على ما عرف عنهن في هذا المجال. و ما يقوي من شكنا في جدية الجاحظ في قوله، أنه- حسب ما وصلنا من آثار- لم يتخذ من الإماء الزنجيات ما يحقق لذاته، و يشبع رغباته.

و على نقيض ما أظهره للزنجيات، نجده لا يطمئن إلى نساء الصقالبة إذا راح يعدد مساوئهن، و مواطن القبح فيهن، و كأن تجربته معهن لم تأت بالنتائج التي كان يأملها. و قد رسم لهن صورة عابسة، ظهرن من خلالها غير محظيات لدى الرجال عند الخلوة، إلى جانب أنهن لا يصلحن لصناعة، أو لخدمة. و لم نتمكن من الوقوف على الدوافع التي جعلته يحكم على هذا الجنس من النساء بمثل هذه القسوة. و لم نتبين الأسباب التي دفعته إلى نعتهن بما تصمن قوله: " أما نساء الصقالبة و صبيانهم، فليس إلى تحويل طبائعهم، و نقل خلقهم إلى الفطنة الثابتة، و إلى الحركة الموزونة، و إلى الخدمة الثابتة الواقعة بالموافقة، سبيل و على حسب الجهل يكون الخرق، و على حسب المعرفة يكون الحذق، و هذا جملة القول في نسائهم، و على أنهن لا حظوظ لهن عند الخلوة، و لا نفاذ لهن في صناعة، إذا كن قد منعن فهم المعاطاة و معرفة المناولة" (20).

أما الهنديات، التي كان عليه أن يقدم لنا خصالهن، و محاسنهن لو كان عمل بنظريته في حكم العادة في الشهوة، فإن حديثه عنهن تلخص في إشارة أوردها في معرض حديثه عن أهل الهند، حيث قال: " و إلى نسائهم تضرب الأمثال " (21).

و أيا كان عرق الجارية و منشأها، فإن الذي لا جدال فيه أن أبا عثمان كان يجد للجواري بعامة مزايا لم يتردد في التوقف عندها و تقديمها في العديد من النصوص التي تناولت هذا الموضوع. من ذلك ما ذكره في المناظر التي عقدها بين صاحب الجواري، و التي جاء فيها :" وريح الجارية أطيب، و ثيابها أعطر، و مشيتها أحسن، و نغمتها أرق، و القلوب إليها أميل، و متى أدرتها من قدام أو خلف من حيث يحسن و يحل و جدت كما قال الشاعر:

وصيفة كالغلام تصلح للـــ * أمرين كالغصن في تثنيـــها
أكملها الله قم قـــــال لـــها * لما استتمت في حسنها إيها (22)

و لعل هذه المزايا هي التي جعلت الجاحظ شغوفا بالجواري بعامة، منصرفا إلـــى التسري، معرضا عن الزواج، حتى إن من اهتموا بشخصيته و كتاباته أجمعوا علـــى عدم زواجه، و خروجه عن نظام الأسرة التقليدية (23)، على الرغم من عدم و جـــود نص له أو لأحد القدامى من معاصريه أو لاحقيه تناول حياته الأسرية، أو أشار إلـــى أسباب إعراضه عن الزواج، و على الرغم من تناوله هذه العلاقة بين الرجل و المرأة بإسهاب، كشف عن إحاطته بجميع جوانبها وقوفه على ما جاء فيها سواء منه ما كـــان من التراث العربي القديم، أو ما كان عمّا طرأ عليها في مجتمعه. و إدراكـــه لأهميـــة هذه العلاقة و الأسس التي تقوم عليها، كالإنجاب الذي يعني مد الأمة بالقوة البشـــرية الضرورية لاستمرارها، و الفضائل الاجتماعية التي تـــدور حـــول القيـــم الســـامية، كالسترو الحصانه و العفة و الألفة و المودة و غيرها مما يوفره إطار الأسرة.

و على الرغم من هذا كله و من إدراكه الكامل لموقف الإسلام مـــن أهميـــة هـــذه العلاقة و النصوص العديدة التي قدمها بين يدي مقاربته؛ لها سواء كانت للنبي صلّـــى الله عليه و سلم، كالحديث الذي رواه على لسان صـــاحب الجـــواري فـــي مناظرتـــه لصاحب الغلمان " قد جاء الحديث عن رسول الله صلّى الله عليه و ســـلم : تزوجـــوا فإني مكاثر بكم الأمم (24). " و كذلك قوله: " و جاء عنه صلّى الله عليـــه و ســـلم : تزوجوا و التمسوا الولد، فإنهم ثمرة القلـــوب "(25). أو كـــانت لمشـــاهير الصحابـــة كروايته لمقولة عمر رضى الله عنه، حيث قال : " وروي عن عمر رضى الله عنـــه أنه قال: " إني لأجهد نفسي في النكاح حتى يخرج الله مني نسمة تسبحه" (26) و نقلـــه قول أبي الدر داء في و جعه الذي مات فيه، حيث: " زوجوني فإني أكره أن ألقـــى الله عزبا". (27)

و كذلك ما ذكره عن منافع المصاهرة و عما كانت العرب تطلبه في المـــرأة مـــن صفات جسدية و عقلية و روحية. ما رسمه للنموذج الأمثل للزوجة و غيرهـــا مـــن أمور تخص ذلك؛ مما يعطي صورة عن مدى عناية أبي عثمـــان و بـــالغ اهتمامـــه بعلاقة الزواج من جهة، و إدراكه التام لفضائلها؛ و النفع الذي يعود بـــه علـــى كـــلا طرفيها.

و كل ما نستطيع فعله في هذه الحال هو أن نحاول استنباط نتيجـــة منطقيـــة مـــن أقواله التي تشير إلى حياته الخاصة مع أننا لا نعتقد أن بعض الأقوال التي كان يدلـــي بها سعيا وراء النادرة و الضحك، كحديثه عن الجارية التركية التي اشتراها طلبا للولد (28) من شأنها أن تزيل عن هذا الموضوع الغموض الذي تسبب فيه صمت الجـــاحظ و صمت معاصريه فيما يخص حياته الأسرية.

كما أن من نسب إعراضه عن الزواج إلى شوهته و قبحه، لم يلتفـــت إلـــى قـــوة شخصيته، و بعده عن العقد النفسية، كما لم يأبه بالدلائل الكثـــيرة علـــى ذلـــك التـــي

تضمنتها كتبه في صورة نوادر و نكت تدور حول قبح خلقته. و الحقيقة أن قضية زواجه لا تزال لغزا، إذ أننا لم نقف على مبرر كاف لإعراضه عن الزواج، فلا التسري كان يقوى على منعه من ذلك؛ لأن كل معاصريه تسروا، من الخليفة إلى أبسط إنسان في المجتمع كان يملك ثمن جارية. و لا انشغاله بالعلم كان حاجزا أمام زواجه؛ لأن من عاصره من العلماء و الأدباء لم يخالفوا سنة الزواج. و لا استطعنا الوصول إلى عيب طبيعي ينقص من رجولته، و من ثم يحول بينه و بين الزواج. و يبقى أمر زواجه ينتظر مزيدا من جهود الباحثين، حتى ينقشع الضباب الذي يحجب حقيقته عنا.

الجواري في بني أمية :

بعد تعرضنا للاهتمام الكبير الذي أولاه أبو عثمان الجاحظ للمرأة الجارية في مجتمعه، و موقفه من ظاهرة التسري بعامة، نرى أنه يجدر بنا أن نعود إلى جذور هذه الظاهرة في المجتمع الإسلامي، لتقصي حقيقتها، و تحديد الأسس التي قامت عليها.

و لن نتوقف معها طويلا في صدر الإسلام؛ لأن مجتمع ذاك العصر لم يعرفها بالشكل الذي عرفها به المجتمع العباسي. ليس لغياب هذه الفئة من النساء عن حياة الناس في ذاك العصر، إذ من المسلم به أن ظاهرة التسري كانت مقبولة من المسلمين آنئذ، بدء من قدوتهم و سيدهم النبيّ صلى الله عليه و سلم إلى عامة الناس، مرورا بالصحابة، رضوان الله عليهم بحكم أن الشرع أقرها من خلال العديد من النصوص التي تحل للرجل التمتع بما ملكت يداه دون تحديد، على خلاف ما فعلته مع الحرائر. و لكننا لن نفعل، لأن الجارية في ذاك المجتمع لم يتعد دورها مجالين: الأول خدمة سيدها و الثاني: توفير متعة المعاشرة له.

كما أننا لن نصل بجهودنا في هذا البحث إلى العصر الجاهلي، لأن طبيعة دور الجارية، و حجم مكانتها في حياة الرجل، يختلفان اختلافا بيّنا عما أصبحا عليه زمن الجاحظ.

من ثم، سنتوقف مع الجارية في عصر بني أمية، و بخاصة في نصفه الثاني، الذي عرف تحولات كبرى في حياة هذه الفئة من النساء، و بخاصة في قصور الملوك الأمويين، حيث كان ما يفعله هشام بن عبد الملك و أخوة يزيد يكاد يضاهي ما يصدر عن المأمون أو غيره من ملوك بني العباس. فقد تلف عقل يزيد بن عبد الملك، و ضاع رشده من كلفه بحبابة، فأهمل الرعية، و تخلى عن واجباته كحاكم للمسلمين، و لم يجد عتاب أخيه مسلمة، و لا نصحه له شيئا (29).

و إذا كان اقتناء الجواري و القيان أمرا قديما، عرفه المجتمع العربي، منذ عصر جاهليته، -كما أسلفنا- فإنّ اتخاذهن على نطاق واسع، لم ينتظر عهد يزيد بن عبد الملك، مطلع القرن الثاني الهجري، فقد تم بعد أن كثرت الفتوحات، واتسعت الرقعة التي دخلت تحت راية الدولة الإسلامية. و بالتحديد منذ الأيام الأولى لعهد بني أمية

التي شهدت تحول الخلافة إلى ملك، تلك الأيام التي تمتد إليها جذور التطور الذي طرأ على حياة الجواري في قصور الخلفاء و السراة في النصف الثاني من العصر.

فأول من اتخذ الجواري و القيان، و أدخل اللهو و المجنون إلى قصوره ومجالسه مؤسس الملك الأموي الذي نقل الجاحظ صورة معبرة عما كان يجري في قصره عبر قوله: " و كان معاوية يؤتى بالجارية فيجرّدها من ثيابها بحضرة جلسائه، و يضع القضيب على ركبها، ثم يقول: إنه لمتاع لو وجد متاعا ! ثم يقول لصعصعة بن صوحان: خدها لبعض و لدك، فإنها لا تحل ليزيد بعد أن فعلت بها ما فعلت" (30).

و أبو عثمان لا يجد في ذاك المشهد إثما، و لا ينظر إليه بنظر التشدد و التزمت؛ بل يقوده تحرر فكرة و اعتدال مذهبة إلى أخذ ذلك على أنه شيء من النعم التي أخلها الله لعباده، و أنه من الدلائل القوية على أن اتخاذ الجواري و العبث بهن لا يخرج عن دائرة الحلال، ما دام قادة الأمة أقروه و عملوا به. و يقول عن ذلك: " و لم يعدم من الخليفة و من بمنزلته في القدر و التأتي أن تقف على رأسه جارية تذب عنه و تروحه، و تعاطيه أخرى في مجلس عام بحضرة الرجال" (31).

و لم يكن معاوية إلا حلقه أولى من سلسلة طويلة، إذ سار على نهجه من جاء بعده في هذا المجال- إذا استثنينا عمر بن عبد العزيز- حيث أصبحوا لا يستغنون عنهن في السلم و الحرب، داخل قصورهم أو خارجها. و قد نقل الجاحظ صورة عن ذلك، تبين لنا ملازمة الجواري لسادتهن، و مشاركتهن في أحداث العصر، قال: " و كانت مع عبد الملك جارية شهدت معه حرب مصعب، فنظرت إلى مصعب و قد انقلب، و انتفخ أيره و ورم و غلظ، فقالت: يا أمير المؤمنين، ما أغلظ أيور المنافقين" (32).

و يفرض علينا حديث الجاحظ هذا مجموعة من التساؤلات: أكان يرمي إلى إبراز جوانب الهزل و المجون في شخصيات الجواري؟ أم كان يسعى إلى إظهار خطورة أدوارهن مند تلك الحقبة من العهد الأموي؟ أم أراد التماس الحجج لملوك بني العباس، و أتباعهم في مواقفهم الهزلية مع جواريهم؟ إن أكبر ظننا أن أبا عثمان كان يرمي إلى هذا جميعا.

الجواري في العصر العباسي:

فإذا أتينا إلى مجتمع بني العباس، و جدنا أن ما كان يحدث فيه قد قلب كل الموازين، و غير العلاقات بين الجواري و ساداتهن، سواء كانوا ملوكا و حكاما، أو مجرد رجال من الطبقات الأخرى.

فلم تعد الجارية جسدا يتخذه الإنسان للتمتع، أو صوتا يركن إلى سماعه ليتخلص من مشاغل الحياة، و لم تعد جواري البلاط تقتصرن على تحريك المروحة فوق رأس الملك، أو دمى يعبث بها في مجلسه، لقد مضى ذلك العصر و وّلى، ليخلفه عصر لا نبالغ، إذا قلنا إنه أصبح قائما على الجواري، بحيث أصبحن يجلسن للناس، و يناظرن العلماء، و يطارحن الشعراء في النظم، و يخرجن إلى الأسواق، و يختلفن في الحوائج. و لنترك الجاحظ، يعرض علينا جانبا من نشاطهن في الصورة، التي نقلها

عنهن، قال:" ثم لم يزل للملوك و الأشراف إماء يختلفن في الحوائج. و يدخلن في الدواوين، و نساء يجلسن للناس، مقل خالصة جارية الخيزران، و عتبة جارية ربطة ابنة أبي العباس، و سكر تركية جاريتي أم جعفر، و دقاق جارية العباسة، و ظلوم و قسطنطينية جاريتي أم حبيب، و امرأة هارون بن جعبوية، و حمدونة أمة نصر بن السندي بن شاهك" (33).

و بحكم هذه الأهمية التي صارت للجواري، و المكانة التي حظين بها، في قلوب أعظم رجال المجتمع، عدّ الجاحظ جواري الإنسان، من أغلاها عليه. يقول في معرض حديثه عن الخوارج: " و أنهم قوم حين خرجوا لم يخلفوا الأموال الكثيرة، و الجنان الملتفة، و الدور المشيدة، و لا ضياعا و لا مستغلات، ولا جواري مطهمات" (34).

و من هذا المنطلق كان ينكر المعاملة الخشنة، التي كانت بعض الجواري يلقينها من ساداتهن، و قد أعجبه قول أستاذ النظام لما وصف أحد أصحابه بكلمة ضبع، لأنه ضرب جاريته، بعد أن اشبع شهوته منها، " قال أبو إسحاق لإسماعيل بن غزوان: أشهد بالله أنك لضبع" . لأن إسماعيل شد جارية له على سلم و حلف ليضربنها مائة سوط دون الإزار- ليلتزق جلد السوط بجلدها، فيكون، أوجع لها- فلما كشف عنها رطبة بضة خدلة** ، وقع عليها، فلما قضى حاجته منها و فرغ، ضربها مائة سوط، فعند ذلك قال أبو إسحاق ما قال" (35).

أمهات الأولاد:

أما أمهات الأولاد، التي رغّب الناس فيهن علي بن الحسين- رضي الله عنهما-، فإنهن نوع من الجواري، كان في منزلة بين المنزلتين، لا هن حرائر بالمعنى الكلمل، و لا هنّ جوار عاديات. و قد لعبن دورا خطيرا في تاريخ الأمة الإسلامية، ذلك أن كثيرا من أبنائهن، تقلدوا أهم المهام من الخلافة إلى ما هو دونها من مناصب الدولة. و يتحدث الجاحظ، عن ظهورهن فيقول: [كان]*** أهل المدينة يكرهون اتخاذ الإماء أمهات أولادهم، حتى نشأ فيهم علي بن الحسين بن علي رضى الله عنهم، وفاق أهل المدينة فقها و علما وورعا، فرغب الناس في اتخاذ السراري" (36).

فلما جاء العصر العباسي، لم تعد هذه الظاهرة غريبة عن الناس، و لم تعد عملا خارجا عن العرف، يلوم فيه الحاكم مرتكبه، كما فعل عبد الملك بن مروان، حين كتب إلى زين العابدين يؤنبه عن زواجه من أمته (37) بل أصبح ذلك نموذجا يحتدى، و تقليدا يتبع، و أخذ يتعاظم، حتى أدى إلى غلبة العنصر الأعجمي على العنصر العربي في كبريات الأسر العباسية، و أصبح أبناء العربيات فيها مستضعفين، لا حول لهم في صراعهم، مع الهجناء من أخوتهم.

و لعل أول من فتح الباب لأم و لد، لتخرج إلى الحياة العامة، هو المهدي، الذي سمح للخيزران بأن تشاركه ملكه (38). و لم تمض فترة طويلة على اعتلاء زوجها عرش بني العباس، حتى أصبح لها سلطان على القصر و الندماء، و الحجاب و

غيرهم، تقرب منهم من تشاء و تبعد من تشاء (39) و أصبحت تجلس للناس، و تفد عليها الوفود، و ينتظر أصحاب المظالم على بابها، كما هو واضح في الصورة التي نقلها الجاحظ عنها، بقوله: " ووقف الهيثم بن مطهر الفأفاء، على ظهر دابته على باب الخيزران، ينتظر بعض من يخرج من عندها، فلما طال وقوفه بعث إلى عمر الكلوذاي فقال له : انزل عن ظهر دابتك"..."(40).

و لما توفي زوجها، و بويع لابنها الهادي، كانت قد تمت لها السيطرة على شؤون الدولة، و آلم ابنها أن يرى المواكب على باب أمه، و رجال الدولة يسارعون إليها، و هي تأمر و تنهي، فأراد أن يصدها عن ذلك، فأنبها حتى أغلظ لها، و أعمتها شهوة السلطة. فدبرت قتله بمساعدة جواريها (41).

و لما تربع ابنها الرشيد على العرش، رأى يحي بن خالد، أن يرضى غرورها و يداري نفوذها، ليأمن جانبها، و يستقيم له الآمر، و لم ينفرد بالسلطة إلا بعد موتها.

إقبال الخلفاء على الزواج من الجواري:

أدى انتشار الجواري بقصور الخلفاء إلى اتخاذ هؤلاء أمهات الأولاد إلى جانب زوجاتهم من الحرائر، و كانوا لا يترددون في استعمال نفوذهم في الحصول على ما يروق لهم من الجواري بدعوى الزواج، ليصلوا إلى أغراضهم، و يشبعوا غرائزهم الجنسية، متسترين بعقد النكاح الشرعي. و قد نقل الجاحظ صورتين عن هذا السلوك، جاء في الأولى: " و لقد نظر المأمون إلى سكر فقال:أنت مملوكة و إذا رضيت أنت حرة . قالت : لا أدري إذا غضبت على أم جعفر قالت: أنت حرة. قال: اكتبي إليها الساعة فاسأليها عن ذلك، فكتبت كتابا و صلته بجناح طائرة من الهدى كان معها أرسلته تعلم أم جعفر ذلك، فعلمت أم جعفر ما أراد فكتبت إليها: " أنت حرة ". فتزوجها على عشرة آلاف درهم، ثم خلا بها من ساعتها فواقعها و خلى سبيلها، و أمر بدفع المال إليها" (42).

و جاء في الثانية، ما يكشف عن جور المتوكل و جبروته، حيث أصبح يأخذ النساء من ديار أوليائهن عنوة، و يرغم الرجال على التنازل له عن أمهات أولادهم، لا يخاف عقاب الخالق، و لا نقمة الزمن. قال: " كانت نخلة، جارية الحسين الخلال، قبل أن يتولى المتوكل الخلافة تقعد بين يديه و تغنيه، فولد للحسين ابنا، فلما ولي طرقه ليلا، فقال له الحسين: زرتنا، جعلت فداك، قال: اشتهيت أن أسمع غناء نخلة، فأخرجها إليه مطمومة الشعر فقال: يا خلال، أليس قد ولدت منك ابنا ؟ قال بلى : فأنا أحب أن تعتقها، قال: فإنها حرة، قال: فاشهد أني قد تزوجتها، قومي يا نخلة، فاشتد ذلك على الحسين، فعوضه منها خمسة عشر ألف دينار، و حول إليه نخلة" (43).

ولم يكن المتوكل يفتقر إلى القيان المغنيات أو إلى الجواري الحسناوات، إذا أن قصره الجعفري كان يغنيه عن نخلة، و يجنبه إجحافه بمولاها و بابنها، لكن نشوة السلطة، و الانحراف عن سبيل الحق و العدل، جعلت هذا " الخليفة " أعمى، لا تبصر عيناه إلا ما يشبع شهوته.

و قد يكون تركيز الجاحظ على الطابع المأساوي في القصة، و توجيه اهتمام القارئ إلى ظلم المتوكل و جبروته، بغرض فضحه، و الكشف عن الوجوه القبيحة في شخصيته، انتقاما منه، لموقفه من المعتزلة.

غير أن هذا، لا ينسينا أن تلك كانت سبيل خلفاء بني العباس جميعا، منذ عهد المهدي، تتفاوت شهواتهم، و ضعفهم أمام سحر الجواري، و بنات العجم. و لكنها لا تضعف، و لا تتراجع.

و لا عجب بعد هذا، إذا وجدنا جواريهم، يطلبن الحيل، و يتربصن الفرص، لخيانتهم. و إتيان الفواحش مع مواليهم و عبيدهم، و الأمثلة على ذلك كثيرة، و نكتفي بالإشارة إلى ما كان بين غريب لما كانت في يد المأمون و بين محمد بن حامد (44)، و ما كان بين إحدى مغنيات الواثق، و أحد مغنية (45).

هكذا كان خلفاء بني العباس مع جواريهم، و هكذا كانت تمضي حياتهم في طلب الملاذ، و إرضاء الشهوات، سحرتهم بنات العجم، و صرفتهم عن الحرائر المهيرات، و تبعهم الناس في ذلك.

بين الحرائر و الجواري في المجتمع العباسي:

رصد أبو عثمان ظاهرة حلول الجواري محل الحرائر في حياة رجال مجتمعه العباسي، و حاول أن يجد لها تفسيرا منطقيا. مقبولا، و طلب علة ذلك، فأعمل عقله في القضية، و اهتدى إلى هذا التعليل الذي ضمّنه حديثه هذا: " و قال بعض من احتج للعلة التي من أجلها صار أكثر الإماء أحظى عند الرجال من أكثر المهيرات. أن الرجل قبل أن يملك الأمة قد تأمل كل شيء منها و عرفة ما خلا حظوة الخلوة، فأقدم على ابتياعها بعد وقوعها بالموافقة. و الحرة إنما يستشار في جمالها النساء و النساء لا يبصرن من جمال النساء و حاجات الرجال و موافقتهن قليلا و لا كثيرا. و الرجال بالنساء أبصر. و إنما تعرف المرأة من المرأة ظاهر الصفة، و أما الخصائص التي تقع بموافقة الرجال فإنها لا تعرف ذلك" (46).

إذن، فالسبب في التخلي عن الحرائر، و تعويضهن بالجواري، يكمن في عنصر الجسد، و رؤيته عند الفئة الأولى و حجابه عند الثانية. و هو أمر يبعث على الغرابة، إذ كيف حدث هذا التطور الخطير في حياة المجتمع العباسي ؟ أبسبب حجاب الحرائر؟.

لا شك أن السبب أبعد من ذلك، و أن الجاحظ إنما حصره في حجاب الحرائر، ليؤكد على مساوئ الحجاب و يقدم حجة أخرى تدعم رأيه في السفور(47). أما السبب الحقيقي، فيدور حول نظام الدولة العباسية، و بالتالي نظام مجتمعها . فالمجتمع العباسي ليس امتدادا للمجتمع الأموي إنما هو مجتمع جديد قام على قواعد تناقض ما كان عليه المجتمع الأموي، فالدولة العباسية قامت – كما نعلم- على أكتاف الأعلجم ، و هؤلاء هدفوا من البداية إلى تغيير شامل في الحياة السياسية و الاجتماعية. و بحكم تجربتهم الطويلة في السياسة، و الحضارة عرفوا أن التغيير يجب أن يبدأ من

الأساس، و أساس كل مجتمع المرأة، فكان لا بد من قلب النظام الخاص بحياة المـرأة، ليتم التغيير المنشود، و من ثم راحوا يحاربون المـــرأة العربيـة داخـل الآسـرة و يزحزحونها عن مواقعها، ليغرسوا مكانها المرأة الأعجمية. و قد تم هذا على مراحل، سمحت المرحلة الأولى بإحلال الجارية، و هي المرأة الأعجمية محل العربية الحـرة، في حياة الرجل الجنسية، ثم تلت ذلك مراحل شملت الخدمة في البيـت، ثـم إنجـاب الأولاد ثم الحياة العامة بفروعها: الاجتماعي، و السياسـي، و الثقـافي. و بسـيطرة المرأة الجارية على الحياة العامة تمت الدولة للعنصر الأعجمي.

و قد فطنت بعض الحرائر إلى هذا المخطط الرهيب، فحاولن أن يقفن في وجهـه، و يقللن من تغلغل الجواري في الأسرة العباسية، كالذي فعلته أم جعفر لمـا شـعرت بخطر عنان على حياتها الزوجية (48) لكن سيطرة الجواري على قلوب الرجال ثـم على الحياة العامة، كانت قد تمت. و لم تعد تجدي معها مقاومة ذاك البعض.

و لما يئسن من استرجاع مكانتهن، و عجزن عن مقاومة زحف الجواري، صـرن يتقربن من أزواجهن بإهدائهم ما يروق و يحسن من جواريهن.

و قد حاول الجاحظ، أن يجعل سيطرة الجواري و تراجع الحرائـر شـيئا قديمـا، حدث قبل العهد العباسي، و قد طلب الحجج لذلك فقدم قولا لمسلمة بن عبـد الملـك، يفضل الجواري على الحرائر، حيث قال :" و قال مسلمة : ثلاثة لا أعذرهم : رجـل أحفى شاربة ثم أعفاه و رجل قصر ثيابه ثم أطالها، و رجل كان عنده سراري فـتزوج حرة " (49).

و أهمل الجاحظ في استدلاله بقول مسلمة أمرا له أهميته، و هو أن قـول مسـلمة انتصار لجنس أمه و فئتها، إذ كان هجينا ابن أمة، و لو لم يكن كذلك لما حـرم مـن الخلافة، مع أنه كان أفضل أخوته علما، و أتمها عقلا، وأشجعهم في الحروب.

و لم يكتف الجاحظ بهذه الحجة ليدعم انتصاره للجواري، بل راح يرصد الأقـوال، و يجمع الآراء، التي تفضل السراري على الحرائر، و من ذلك، هذه الحجـة التـي ذكرها في قوله : " و قيل: كان يقال : من أراد قلة المؤونة، و خفة النفقـة، و حسـن الخدمة، و ارتفاع الحشمة، فعليه بالإماء دون الحرائر" (50).

لكن هذا لم ينس الجاحظ حقيقة الجواري، و أنـهن سـلعة، تتقلـب فـي أيـدي النخاسين، يفحصها الناس، كما يفعلون مع أي حيوان في سوق الماشية فذكر بعـض الأقوال التي تبرز مساوئ الجواري، فقال: وكان يقال الجـواري كخـبز السـوق و الحرائر كخبز الدور. و من أمثال العرب : لا تمازح أمة، و لا تبك علـى أكمـة. و قال: لا خير في بنات الكفر و قد نودي عليهن في الأسواق و مـرت عليـهن أيـدي الفساق" (51).

و لا ندري إذا كانت نسبة هذه الآراء إلى الجاحظ، أمرا لا يشو به شك، ذلـك أن أسلوبها القائم على السجع المتكلف، يختلف عما عودنا عليـه الجـاحظ فـي كتاباتـه الأخرى.

ومهما يكن، فإن هذه الأمثال و الأقوال تطابق واقع الجواري و القيان، و تعبر عن حقيقتهن أصدق تعبير، و لو عمل بها الناس في مجتمع الجاحظ لتغيرت حياتهم في الميادين: السياسية و الاجتماعية و الثقافية، و لكن ما كان الجواري و القيان يحدثنه من ظرف، و ما برعن فيه من و سائل جذب الأنظار، و استمالة الأهواء من جهة، و الجو الملائم لذلك، الذي كان يتاح لهن؛ بتدبير المخططين الأعاجم، من المشرفين على حياة المجتمع، و سياسة الدولة من جهة أخرى، جعل الرجال في المجتمع العباسي، لا يبصرون شيئا من مساوئهن، فلم يقووا على مقاومة سحرهن، و فتنتهن.

و لأن الجاحظ أدرك حقيقتهن، و عرف جوهرهن، لاحتكاكه الكثير بهن، و اطلاعه على أسرارهن، و معرفته بطبائعهن، فإنه استطاع أن يصبح إمام المصورين الذين سلطوا عدساتهم على الجواري، و نقلوا واقعهن. و لم يتم له ذلك إلا بفضل ملاحظته الدقيقة، و قدرته الفائقة على رصد الجزئيات الصغيرة في الحياة، و براعته في الوصف. و قد شهد له بذلك كل من تطرق لموضوع الجواري و القيان (52).

شخصية الجارية:

و قد استطاع الجاحظ أن يصور مناحي شخصية الجارية بدقة، فجعلنا نقف على أسرارها، و نعرف أخلاقها، و ندرك مشاعرها. و من أهم جوانب شخصيتها الرفث في الكلام ، و التبذل و الاستخفاف بالأخلاق، و التحلل من القيود التي تفرضها قيم المجتمع، أما مفهوم الكرامة و العزة عندها، و عناصر النسب و الحسب في عينها فيحدثنا عنها الجاحظ بقوله : " و الحسب و النسب الذي بلغ به القيان الأثمان الرهيبة إنما هو الهوى " (53). فسعادة الجارية كل سعادتها، و عزتها و غايتها، أن تحظى باهتمام مولاها، و بخاصة إذا كان ذلك من شأنه إشباع غرائزها، و تحقيق لذاتها إذ نشأت على هذه القاعدة، و عودها المجتمع على أن قيمتها محصورة في قدرتها على الإغراء، و استمالة القلوب، و إثارة الغريزة الجنسية. فإذا أدت وظيفتها و نالت مرادها، شعرت بوجودها و أهميتها في المجتمع.

و لتأكيد جانب الاستهتار بالقيم الخلقية، و التبذل في السلوك لدى الجواري، يعدد أبو عثمان من النصوص التي تحمل صورا صادقة عن ذلك منها الحديث الذي جاء فيه : " و حدثني محمد بن يسير قال: قال أبو عمرو المدني : لو كانت البلايا بالحصص ما نالتني كل ما نالني : اختلف جاريتي يالشاة إلى التياس و بي إلى حملها حاجة، فرجعت جاريتي حاملا، و الشاة حائلا " (54).

و كان الجاحظ يتتبع الجواري و يرصد نوادرهن و أجوبتهن الماجنة، فيوردها في أحاديثه الهزلية بقصد الترفيه عن القارئ، لكن الأهمية الأولى التي توجد فيها هي الكشف عن أخلاق الجواري، و إعطاء القارئ صورة واضحة عن سيرهن، و تصرفاتهن. من ذلك هذا الخبر الذي يدل دلالة كافية على مجن الجواري، و انعدام خلق الحياء فيهن، قال : " نظر رجل بالمدينة إلى جارية سرية ترتفع عن الخدمة، فقال : يا جارية، يدك عمل ؟ قالت: لا، و لكن في رجلي" (55).

و من كلام الجواري، الذي يدخل في هذا الباب، و يدل على أخلاقهن، و عن مدى اهتمامهن بالقيم، هذا الحبر، الذي يصور مشهدا رهيبا " و نظر بعض الحاج إلى جارية، كأنها دمية في محراب. قد أبدت عن ذراع كأنه جمارة، و هي تكلم بالرفث، يا هذه، تكلمين بمثل هذا و أنت حاجّة قالت : لست حاجة، و إنما يحج الجمل، ألست تراني جالسة و هو يمشي؟ قال: و يحك، لم أر مثلك فمن أنت ؟ قالت : أنا من اللواتي و صفهن الشاعر فقال:

و قد دقت و جلت و اسبكرت و أكملت فلوحن إنسان من الحسن جنت" (56).

و قد تعددت عرض هذه الجوانب في شخصية الجارية من خبر و نادرة، و قصص قائم على الحوار المتنوع، مما أتاح للجاحظ نقل مشاهد عديدة من واقع الجواري، بحركاته و أصواته و ألوانه. و هو ما يعطي نظرة شاملة عن العلاقات التي كانت سائدة بين الجواري و ما لكيهن، و التطور الذي عرفه و ضعهن في ذلك العصر. أصبحت الجارية تفرض على سيدها بعض القيود في علاقاته مع بقية النساء، و تعبر له عن غضبها و استيائها لمعاشرته غيرها. و قد تتجاوز هذا الحد، فتغلظ له القول و تهجره، حتى يرضخ لها و يترضاها و فيكون ذلك إشباعا لغرورها. كالذي يصوره الجاحظ في هذه القصة : " و كان يعقوب بن يحي المدائني، و يحي الكاتب، كاتب سهل بن رستم، يتحدثان إلى مهدية، جارية سليمان بن الساحر، فقال يعقوب يوما ليحي : أنا أشتهي أن أرى بطن مهذبة. فقال يحي: ما تجعل لي إن أنا احتلت لك بحيلة حتى تراه؟ قال: فتوثق منه، و أتى مهدية فقال لها: كان لي برذون موافق فاره فنفق، و أنت لو شئت لحملتني علي برذون فاره. قالت: أنا أفعل و أشتريه لك بما بلغ من الثمن. قال: أنت قادرة عليه بغير الثمن. قالت: كيف ذلك؟ فأخبرها بالقصة فقالت: قد حملك الله على البرذون، و أربحك النظر إلى بطن حسن، فإذا كان غدا فتعال أنت و يعقوب فاجلسا، فإن سليمان يعبث بوصيفته فلانة كثيرا، فإذا فعل ذلك و جئت أنا، فقل : أنت مهدية، لو علمت ما صنع فلان لقتلته. قال: نعم، فلما جاءا مهدية، قال لها: إن أمر سليمان مع وصيفته أشنع مما تقدرينه، فوثبت مستشيطة غضبا و قالت: مثلك يا ابن الساحر يفعل هذا مرة بعد أخرى؟ و شقت جيبها إلى أن جاوزت أسفل البطن و هي قائمة فنظرنا إلى بطنها، فتأملناها ساعة و هي تشتم ابن الساحر، فقام إليها يترضاها و يسكنها، و يعقوب يقول: و ابرذوناه ! فأخذه منه يحي" (57).

و إذا كان خبث الجواري، و مكرهن واضح في القصة، فإن الجاحظ يذهب إلى أبعد من ذلك بحيث أراد التركيز على التطور الهام، الذي طرأ على العلاقات بين الجواري و أصحابهن، و من ثم و ضعهن، إذا كان هذا مرتبطا بذاك. و ذلك أنهن بعد سيطرتهن على الحياة العامة، و بعد كثرة الإقبال عليهن، أصبحن يطالبن ببعض الحقوق في المعاملة و في المصير، كخطوة أولى نحو التحرر و الخروج عن إطار الرق التقليدي.

و يتضح لنا هذا أكثر من القصة التي رواها الجاحظ عما جرى بين قاسم الثمار، و إحدى الجواري حيث قال: " و دخل قاسم منزل الخوارزمي النحاس فرأى عنده جارية كأنها جان، و كأنها خوط بان، و كأنها جدل عنان، و كأنها الياسمين، نعمة و بياضا، فقال لها: أشتريك يا جارية ؟ قالت : " افتح كيسك تسر نفسك" ! و دخلت الجارية منزل النحاس، فاشتراها و هي لا تعلم، و مضى إلى المنزل، و دفعها الخوارزمي إلى غلامه فلم تشعر الجارية إلا و هي معه في جوف بيت، فلما نظرت إليه و عرفت ما وقعت فيه قالت له: و يلك !إنك و الله لن تصل إلى إلا بعد أن أموات !و الله أن زلت مند رأيتك، و دخلت إلى الجواري، أصف لهن قبحك و بلية امرأتك بك فأقبل !عليها يكلمها بكلام المتكلمين، فلم تقبل منه: فقال فلم قلت لي: افتح كيسك تسير نفسك" ؟ و قد فتحت كيسي فدعيني أسر نفسي ! وهو يكلمها و عين الجارية إلى الباب، و نفسها في توهم الطريق إلى منزل النحاس. فلم يشعر قاسم حتى و ثبت وثبة إلى الباب كأنها غزال، و لم يشعر الخوارزمي إلا و الجارية بين يديه مغشي عليها. فكر قاسم إليه راجعا و قال: ادفعها إلى أشفي نفسي منها. فطلبوا إليه، فصفح عنها و اشتراها في ذلك المجلس غلام أملح منها، فقامت إليه فقبلت فاه، و قاسم ينظر، و القوم يتعجبون مما تهيأ له وتهيأ لها ! " (58).

و يبدو من القصة ومن طابع السخرية، الذي يتجلى فيها، أن الجاحظ كان يريد أن يحقق هدفين، أولهما هجاء قاسم الثمار، وإظهار قبحه، و قد سلط عليه أداة تصويره، حتى ظهر بدرجة من القبح، تأباه الجواري، و تنفر منه، مع أنهن تعودن على تحمل ما لكيهن مهما كانت أشكالهم فجعله بذلك مثلا في القبح و البشاعة. و هذا أسلوب راق في الهجاء، أغنى صاحبة عن استعمال ألفاظ القبح المألوفة، فتمكن من مسخ صاحبة قاسم بالإشارة و الرمز، من غير أن يلجأ إلى الاسترسال و التوسع في نعت القبح. و هذا لا شك، ابتكار يضاف إلى رصيد الجاحظ الفني.

أما الهدف الثاني الذي حققه، فهو رفع الجارية من مستوى السلعة، أو الماشية التي تنساق وراء صاحبها دون مقاومة، إلى مستوى الإنسان الذي يختار بعقله و يقاوم و يثور. فعبر بذلك عن إنسانية الجارية، و كأنه ينادي بإعطائها حقها في اختيار مصيرها. و يدخل هذا في إطار دفاعه عن المرأة بعامة.

و قد أورد قصة في هذا المعنى، جعلها تدور حول عيسى بن مروان، كاتب أبي مروان عبد الملك بن أبي حمزة، و إحدى الجواري (59). و هي لا تختلف عن قصة قاسم الثمار من حيث الهدف و المعنى المقصود، و ليس بها ما يضاف إلى ما قبل في سابقتها، إلا أن هجاء الجاحظ لعيسى، جاء أوضح، إذا أفصح عن موضع القبح فيه، فجعله في أنفة. أما امتناع الجارية، و ما صاحب ذلك من سخرية الجاحظ من بطله، فهو شبيه بما في قصة قاسم الثمار.

ثقافة الجواري:

و لعل، أهم سلاح ملكته الجواري و استخدمنه في معركتهن من أجل التحرر و

الخروج من إطار الرق القديم، هو ثقافتهن، لأنهن بدونها ما كن ليصلن إلى ما و صلنا إليه في العصر العباسي على الرغم من تسليمنا بأهمية جمالهن و طرقهن في الإغراء من جهة، و البيئة الملائمة لسيطرتهن من جهة أخرى.

و ثقافة الجواري، قضية تناولها المؤرخون و تتبعها الإخباريون، و نالت قسطا كبيرا من اهتمام الدارسين. و قد برعت بعضهن في الفنون شتى من معارف عصرهن، فبالإضافة إلى معرفتهن باللغة و الأخبار و الحكم، كان البعض منهن على دراية كبيرة بالقرآن و الحديث (60) و الطب و غير ذلك من علوم العصر. و زاد من ثقافتهن، أن النخاسين عملوا على تعليمهن لارتفاع أثمان المتعلمات (61).

و قد اهتم الجاحظ بثقافة الجواري، مظهرا قدرا كبيرا من التقدير لمواهبهن الفكرية، لكون ذلك يتجاوب مع موقفه من الجواري بخاصة، و النساء بعامة. و في هذا الإطار قدم نماذج على قدرة الجارية على استيعاب كثير من المعارف المختلفة، أيا كانت طبيعتها و مستواها. من ذلك ما نقله عن جارية سلمويه، طبيب المتعصم، حيث قال: " قال العتبي ذات يوم لابن الجهم: ألا تعجب من فلان !نظر في كتاب لإقليدس مع جارية سلمويه في يوم واحد، ساعة واحدة، فقد فرعت الجارية من الكتاب و هو بعد لم يحكم مقالة واحدة، على أنه حر مخير، و تلك أمة مقصورة، و هو أحرص على قراءة الكتاب من سلمويه على تعليم الجارية" (62).

إن هذا الخبر يحمل في طياته العديد من المعاني ذات الدلالة الواضحة، فالجارية إنسان ذو ملكات، متى توفر لها المناخ المناسب، و أينعت، وأثمرت عادت على صاحبها بأكبر النفع لما سيعرفه ثمنها من زيادة. و هي قادرة على التحصيل، ليس فيما ألفه الناس من الجواري و الإماء كالغناء و الشعر، و لكن في العلوم و المعارف التي كانت حتى ذاك العصر حكرا على الرجال كالطب و ما جرى في فلكه.

و قد عدد الجاحظ من الأمثلة و النماذج، التي تشهد بنبوغ الجواري في ميدان العلم، و تبحرهن في مختلف الثقافات. كالذي رواه عن الأصمعي و جارية من الجواري الرشيد، حيث قال " قال الأصمعي: بعث إلي هارون الرشيد، و هو بالرقة فحملت إليه فأنزلني الفضل بن الربيع، ثم أدخلني عليه وقت الغروب، فاستدناني و قال: يا عبد الملك، وجهت إليك بسبب جاريتين أهديتا إلى، و قد أخذتا طرفا من الأدب أحببت أن تبرز ما عندهما، و تسير على الصواب فيهما، ثم أمر بإحضارهما فحضرت جاريتان ما رأيت مثلهما قط، فقلت لإحداهما: " ما عندك من العلم؟ قالت:" ما أمر الله في كتابه ثم ينظر فيه الناس من الأشعار و الأخبار، فسألتها عن حروف القرآن، فأجابتني كأنها تقرأ في كتاب الله. ثم سألتها عن الأشعار و الأخبار و النحو و العروض، فما قصرت عن جوابي في كل ما أخذت فيه" (63).

يعد هذا إقرار صريحا من الجاحظ، و شهادة على ثقافة بعض الجواري اللواتي يجدن المناخ المناسب و ينشأن على تحصيل العلوم و الفنون، و يحطن بالرعاية و الصون. و موقف أبي عثمان دليل عل إثبات قدراتهن في ميادين العلم و المعرفة.

و يدخل في الباب ما نقله المبرد عن الجاحظ، فيما يخص جارية حمدونة، حيث قال: " حدث الجاحظ عن إبراهيم بن السندي قال: كانت تصير إلي هاشمية جارية حمدونة في حاجات صاحبتها فاجمع نفسي لها و أطرد الخواطر عن فكري، و أحضر ذهني جهدي، خوفا أن تورد علي مالا أفهمه، لبعد غورها و اقتدارها على أن تجري على لسانها ما في قلبها" (64).

و إلى جانب هؤلاء العالمات، المثقفات، اللائي كان علماء العصر و أدباؤه يتهيأون لهن و يستعدون لملاقاتهن، هناك شاعرات موهوبات، شهد لهن أصحاب التراث العربي بقدراتهن الشعرية، و تفوقهن في هذا الفن كفضل الشاعرة، التي عاصرت أبا عثمان، و حظيت باهتمامه، فقد أورد لها خبرا فيه من أمارات النبوغ في الشعر، و دلائل إتقان الموسيقى و الغناء، ما كاد يحجب ما به من أمارات اليسار و البذخ، و علامات الجاه و السلطان. جاء فيه" حدثنا القاسم بن عبد الله الحراني قال : كنت عند سعيد بن حميد الكاتب ذات يوم و قد افتصد، فأتته هدايا " فضل الشاعرة ألف جدي، و ألف دجاجة، و ألف طبق رياحين، و طيب و عنبر، و غير ذلك، فلما وصل ذلك كتب إليها: إن هذا اليوم لا يتم سروره إلاّ بك و بحضورك". و كانت من أحسن الناس ضربا بالعود، و أملحهم صوتا، و أجودهم شعرا، فأتته، فضرب بينه حجاب، و أحضر قوما ندماءه، و وضعت المائدة، و جيء بالشراب فلما شربنا أقداحنا أخذت عودها فغنت بهذا الشعر، و الصوت لها و الشعر، و الأبيات هذه:

يا من أطلت تفرسي * في وجهه و تنفسي
أفديك من متدلل * يزهو بقتل الأنفس
هبني أسأت و ما أسأ * ت بلى أقول أنا المسي
أحلفتني أن لا أسا * رق نظرة في مجلسي
فنظرت نظرة عاشق * أتبعتها بتنفسي
و نسيت أني قد حلفت * فما يقال لمن نسي" (65)

و هذه صورة، أن كانت لا تعبر عن مواهب هذه الجارية الفصيحة، المطبوعة على قول الشعر، فإنها تكشف عن المكانة التي بلغتها بعض الجواري الموهوبات، و التي كانت تضمن لهن عيشا راغدا مترفا في قصور الخلفاء و السراة.

و مهما يكن، فإن فضل ليست جارية مغمورة، أو أمة من عامة الإماء، فقد كتب عنها جهابذة الأدب و تاريخه، و قدمها العلماء و النقاد، حتى عدّها صاحب الأغاني أشعر نساء زمانها (66). لما اشتهرت به من براعة في النظم، و طول باع في الكتابة، و ذيوع صيت في العزف و الغناء.

و من أشهر مجالس الشعر، التي كانت الجواري تطارح فيها الشعراء، تلك التي كانت تدور بين عنان جارية العاطفي و أبي نواس. و قد فاصت كتب الأدب و الأخبار بنوادرهما و أخبارهما، و تنافست في وصف لقاءاتهما التي كانت تعد مناسبة لأصحاب اللهو و المجون، لسماع النوادر الماجنة، و الأشعار الإباحية.

و لم تفت تلك اللقاءات رجلا دقيق الملاحظة، واسع الاطلاع كالجاحظ، فسجل ندوة من ندواتهما الشعرية الماجنة، نستخلص منها قدرة هذه الجارية الفائقة على نظم الشعر، و سرعة بديهتها، التي جعلتها قادرة على إجازة أي بيت من الشعر، و الرد على أي معنى يذهب إليه أي شاعر، مهما كانت منزلته في عالم الشعر، و مهما كان ذكاؤه و مكره. و جاء فيها: " و كانت عنان تتوقى أبا نواس، و تخاف مجونه و سفهه، و فيها يقول:

عنان يا من تشبها لعينا * أنتم على الحب تلومونا
حسنك حسن لا يرى مثله * قد ترك الناس مجانينا

فتهيأت لأبي نواس، و تصنعت له، إلى أن صار إليها، فرأى عندها بعض و جوه أهل بغداد، فأحب أن يخجلها فقال لها:

ما تأمرين لصب يكفيه منك قطيره

فقالت:

أياى تعني بهذا؟ عليك فاجلد عميره

فقال:

إني أخاف و ربي على يدي منك غيره

فأخجلته، و شاع الخبر حتى بلغ الرشيد، فأستظرفها و طلبها من العاطفي فحملت إليه فقال لها: يا عنان! قالت:لبيك يا سيدي، فقال: ما تأمرين لصب؟ قالت قد مضى الجواب في هذا يا أمير المؤمنين ، قال: بحياتي كيف قلت؟ قالت: قلت:

أياى تعني بهذا عليك فاجلد عميره

فضحك الرشد و طلبها من مولاها، فاستام فيها ما لا جزيلا، فردها" (67).

و لم تكن "ندوات" عنان تقتصر على حضور أبي نواس، بل كانت عامة يرتادها شعراء العصر و رواته و مجانه، فيجتمعون للهو و الشرب و السمر، و يتطارحون الشعر فيها، و غلبا ما كانوا يجعلون عنان حكما بينهم، لإيمانهم بقدرتها و براعتها في النظم، و معرفتها الواسعة بقواعد الشعر و أسراره.

و لم يتردد الجاحظ في نقل صورة عن ذلك، ليجعلها شاهدا على ما تبلغه المرأة إذا ما توفرت لها أسباب التعليم و فتحت لها أبواب الثقافة، و ما تحققه في مجالات عديدة، إذا ما منحت الفرصة لتحقيق طموحاتها. و قال في ذلك: " و اجتمع أبو نواس، و الفصل الرقاشي، و الحسين الخليح، و عمر الوراق، و محكم بن رزين، و الحسين الخياط في منزل عنان فتناشدوا إلى وقت العصر، فلما أرادوا الانصراف قالوا: " أين نحن الليلة؟ فكل قال " عندي" فقالت: عنان: بالله قولوا شعرا و ارضوا بحكمي" (68).

و من النماذج التي قدمها الجاحظ على شهرة عنان في ميدان الشعر، ووفود المهتمين بذلك عليها، ما نقله عن الأعرابي الذي قطع المسافات و تحمل مشاق السفر، من أجل التمتع بسماع شعرها، حيث قال: " قال السلولي: دخلت يوما على عنان و

عندها رجل أعرابي، فقالت:" يا عم لقد أتي الله بك" ، قلت: " و ما ذاك؟ " قالت: " هذا الأعرابي دخل على فقال: بلغني أنك تقولين الشعر، فقولي بيتـــا" ، فقلــت: " قولـــي" فقالت: قد رتج على، فقل أنت، فقلت:

لقد جد الفراق و عيل صبري عشية عيرهم للبين زمت

فقال الأعرابي:

نظرت إلى أواخرها ضحيا قد بانت و أرض الشام أمت

فقالت عنان:

كتمت هواكم في الصدر مني على أن الدموع على نمت

فقال الأعرابي: " أنت و الله أشعرنا، و لو لا أنك بحرمة رجل لقبلتك، و لكني أقبل البساط "(69).

و كانت هذه المواهب الفنية و المعارف العلمية، التي اتسمت بها بعض الجواري و سيلة في أيديهن، ليخطون خطوات نحو نور الحرية، و يتخلصن من قيود العبوديـــة، التي كن يعانين منها. و لم يكن يتم ذلك للجواري الموهوبات المثقفات، إلا بعـــد مـــدة يمضينها في إطار الرقيق المألوف، يقطعن خلالها عدة مراحل في عمليـــة التطـــور، التي يتعرض لها وضعهن، وقد تقابلهن خلال ذلك عقبات و متاعب، لا يجتزنـــــها إلا بالصبر و الحيلة تارة، و بوسائل الإغراء و إثارة الإعجاب تارة أخرى، و لعل ذلـــك يتجلى في الخبر الذي نقله الجاحظ عن عنان مع مولاها بضرب شديد و هـــي تبكـــي فقلت: دخلت على عنان فإذا عليها قميص يكاد يقطر صبغة و قد تناولها مولاها حيـــث قال : " و قال بعضهم

إن عنان أرسلت دمعها كالذر إذ ينسل من سمطه

فقال و أشارت إلى مولاها:

فليت من يضربها ظالما تجف يمناه على سوطه

فقال مولاها: هي حرة لوجة الله إن ضربتها ظالما أو غير ظالم" (70).

هكذا كانت الجواري المتعلمات يحاولن أن يتخلصن من أوضاعهن التـــي تفـــرض عليهن معانة الرق وقسوته وبشاعته، ويأملن أن تســـمح لـــهن مواهبـــهن وثقافتـــهن بالارتقاء إلى طبقة الجواري المتحررات، ليلحقن بأمهات الأولاد اللائـــــي كـــن فـــي أوضاع أحسن، ويتمتعن بحياة أفضل – في كثير من الأحيان – من حياة غريماتـــــهن من الحرائر.

هكذا إذن، عمد الجاحظ إلى عالم الجواري لينفد إلى دقائقه ويقف أعلـــى أســـراره خباياه، حيث عايش بيئتهن في أسواق النخاســـين، وفـــي دور الأشـــراف والســـراة ، وقصور الخلفاء و الأمراء يرصد حركاتهن،ويراقب ســـلوكاتهن، ويلتقـــط أقوالـــهن ويحلل أخلاقهن، كل ذلك مع بدل الجهد من أجل تجديد الدوافع وكشف العلـــل التـــي

جعلت هذه الفئة من نساء المجتمع العباسي يجهدن بكل قواهن، من أجل تحسين أوضاعهن إما بالإنجاب، أو بالنبوغ في الفنون و العلوم حتى ينتقلن إلى حياة أفضل ويبدلن الجهد والوقت، من أجل إفتكاك حرية كانت الهدف الأسمى لهن.

وقد كان موقف أبي عثمان من هذه الفئة من نساء مجتمعه يتسم بكثير من التفهم والمرونة حيث راح يلتمس لهن الأعذار في بعض مواقفهن ويتقاضى عن بعض سلوكاتهن، مع التركيز على بعض أوجه النور في حياتهن، والجوانب المشرقة في شخصياتهن، وطلب البراءة لهن من المصائب التي كن قد وقعن وأوقعهن غيرهن فيها، محملا المجتمع شيئا من المسؤولية عن ذلك التطور الخطير الذي طرأ عليه.

المصادر:

* البياعات: بكسر الباء، جمع بياعة ، و هي السلعة.

** خدلة: الممتلئة الأعضاء لحما في رقة عظام.

*** الكلمة غير موجودة في المصدر، و بها تستقيم العبارة.

الهوامش:

1. الجاحظ، عمرو بن بحر، الحيوان، تحقيق عبد السلام محمد هارون، ط. مصر، مكتبة الخانجي، 1965-1969 99/2.
2. أمين، أحمد، ضحى الإسلام، ط مكتبة النهضة المصرية، 1977-1978،87/1، نقلا عن السعودي علي بن الحسين، مروج الذهب و معادن الجوهر، ط. مصر، المطبعة البهية، 1927،308/2.
3. عفيفي، عبد الله، المرأة العربية في جاهليتها و إسلامها، ط. مصر دار احياء الكتب العربية، 1921،11/3.
4. ضيف، شوقي، تاريخ الأدب العربي، العصر العباسي الأول، ط. مصر، دار المعارف، دت ص58.
5. متز، أدم، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة ط. مصر، مكتبة الخانجي /بيروت، دار الكتاب العربي،1967.
6. المرجع السابق، ص306.
7. أمين، أحمد، ضحى الإسلام، مرجع سابق، 86/1.
8. الجاحظ، عمرو بن بحر، رسائل الجاحظ، تحقيق عبد السلام محمد هارون، ط. مصر، مكتبة الخانجي 1965-1979، 161/2.
9. متز، أدم الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، مرجع سابق، ص302- 303.
10. الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين، الأغاني، تحقيق لجنة الأغاني، بإشراف محمد أبي الفضل ابراهيم، ط. مصر الهيئة المصرية، العام للكتاب، 1970-1974،61/18.
11. النجم، و ديعة طه، الجاحظ و الحاضرة العباسية، ط. بغداد،1964ص116.
12. الجاحظ، عمرو بن بحر الجاحظ، رسائل الجاحظ ، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مصدر سابق 82/2.
13. المصدر السابق،282/2.
14. المصدر نفسه،288/2.
15. المصدر نفسه، 288/2.
16. المصدر نفسه، 215/1.
17. جبر، جميل، الجاحظ في حياته و فكرة، ط. بيروت، دار الكتاب اللبناني، 1959، ص62.

18. الجاحظ، عمرو بن بحر، رسائل الجاحظ، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مصدر سابق، 215/1.
19. المصدر السابق، 213/1.
20. الجاحظ، عمر بن بحر، الحيوان، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مصدر سابق،17/1.
21. الجاحظ، عمرو بن بحر، رسائل الجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون، مصدر سابق، 224/1.
22. المصدر السابق، 97/2.
23. السندومي، حسن، أدب الجاحظ، ط القاهرة، المطبعة الرحمانية، 1931، ص 205، و قارن
–بلبلع عبد الحكيم، النثر الفني و أثر الجاحظ فيه، ط. مصر، دار النهضة 1979، ص 199.
–خفاجي، عبد المنعم، أبو عثمان الجاحظ، ط. مصر، دار الطباعة المحمدية بالازهر دت، ص261.
– مكي، الطاهر أحمد، دراسة في مصادر الأدب، ط. مصر، دار المعارف، 1977، ص 114
– غريب، جورج، الجاحظ دراسة عامة، ط. بيروت، دار الثقافة 1967، ص 21.
24. الجاحظ عمرو بن بحر، رسائل الجاحظ، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مصدر سابق، 102/2 و قارن بـ:
– ابن دواد، سليمان بن الأشعث، سنن ابن داود، ط. بيروت، دار الكتاب العربي د–ت، 176/2.
25. الجاحظ، عمرو بن بحر، رسائل الحاحظ، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مصدر سابق، 103/2، و لم أعثر له على أثر في مصادر الحديث.
26. المصدر السابق، 103/2.
27. الجاحظ، عمرو بن بحر، البخلاء، تحقيق طه الحاجري، ط. مصر، دار المعارف 1951، ص 146. و في الرسائل، 103/2، القول منسوب إلى معاذ بن جبل، رضي الله عنه.
28. علي، بن محمد كرد، أمراء البيان، ط. مصر، لجنة التأليف و الترجمة و النشر، 1937، 457/2.
29. ابن عبد ربه، أحمد بن محمد، العقد الفريد، تحقيق أحمد أمين و زميلاه، ط مصر لجنة التأليف و الترجمة و النشر، 1949–1965، 61/6.
30. الجاحظ، عمر بن بحر، رسائل الجاحظ، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مصدر سابق، 155/2.
31. المصدر السابق، 155/2.
32. الجاحظ، عمر بن بحر، الحيوان، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مصر سابق، 451/6.
33. الجاحظ، عمر بن بحر، رسائل الجاحظ، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مصدر سابق، 156/2.
34. المصدر السابق، 42/1.
35. الجاحظ، عمر بن بحر، الحيوان تحقيق عبد السلام محمد هارون، مصر سابق، 117/5.
36. الجاحظ، عمرو بن بحر، المحاسن و الأضداد، تحقيق فوزي عطوي، ط. بيروت، الشركة اللبنانية للكتاب، 1969، ص 230.
37. ابن عبد ربه، أحمد بن محمد، العقد الفريد ، تحقيق أحمد أمين و زميلاه، مصدر سابق، 128/6.
38. العباس، عبد الحليم، البرامكة في بلاط الرشيد، ط. مصر، مطبعة الجريدة التجارية المصرية 1947، ص 38.
39. المنجد، صلاح الدين، بين الخلفاء في العصر العباسي، ط. بيروت، ذار الحياة، 1975 ص 7.
40. الجاحظ، عمر بن بحر، البيان و التبيين، تحقيق عبد السلام محمد هارون، ط. مصر، مكتبة الخانجي 1975، 296.
41. المنجد، صلاح الدين، بين الخلفاء و الخلعاء في العصر العباسي، مرجع سابق، ص7.
42. الجاحظ، عمر بن بحر، رسائل الجاحظ، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مصدر سابق، 157/2.
43. الجاحظ، عمر بن بحر، المحاسن و الأضداد، تحقيق فوزي عطوي، مصدر سابق، 138.
44. الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين، الآغاني، تحقيق لجنة الأغاني بإشراف محمد أبي الفصل ابراهيم، مصدر سابق، 80/21.
45. ابن عبد ربه، محمد بن أحمد العقد الفريد، تحقيق أحمد أمين و زميلاه، مصدر سابق، 60/6.
46. الجاحظ، عمرو بن بحر، رسائل الجاحظ، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مصدر سابق، 157/3.

47. غيوة يوسف، صورة المرأة في أدب الجاحظ، رسالة ماجستير، محطوطة، مكتبة جامعة القاهرة ص145- 150.
48. الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين، الأغاني، تحقيق لجنة الأغاني بإشراف محمد أبي الفضل ابراهيم مصدر سابق ، 32/90-93.
49. الجاحظ، عمرو بن بحر، البيانن و التبيين، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مصدر سابق79/2.
50. الجاحظ، عمرو بن بحر، المحاسن و الأضداد، تحقيق فوزي عطوي، مصدر سابق، ص 230.
51. المصدر السابق ص 231.
52. الجاجري طه الجاحظ حياته و أثاره، ط. مصر دار المعارف د ت ص 351. و قارن -عفيفي عبد الله المرأة العربية في جاهليتها و إسلامها مرجع سابق 15/3.
-عبد الله محمد محسن، الحب في التراث العربي ط. الكويت سلسلة عالم المعارف رقم 36، 1980 ص 181.
53. الجاحظ، عمرو ين بحر، رسائل الجاحظ، تحقيق عبد السلام محمد هارون مصدر سابق 165/2.
54. الجاحظ، عمرو بن بحر الحيوان. تحقيق عبد السلام محمد هارون، مصدر سابق، 591/5.
55. الجاحظ، عمرو بن بحر، رسائل الجاحظ، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مصدر سابق 131/2.
56. المصدر السابق،97/2.
57. الجاحظ، عمرو بن بحر، المحاسن و الأضداد، تحقيق فوزي عطوي، مصدر سابق ص 157.
58. الجاحظ، عمرو بن بحر، الحيوان.. تحقيق عبد السلام هارون، مصدر سابق، 262/6.
59. المصدر السابق 6/ 263.
60. فتح الله حمزة، باكورة الكلام على حقوق المرأة في الإسلام، ط. مصر، المطبعة الكبرى بولاق 1308ه، ص 93.
61. أمين، أحمد، ضحى الإسلام، مرجع سابق،54/1.
62. الجاحظ، عمرو بن بحر، الحيوان، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مصدر سابق، 54/1.
63. الجاحظ، عمرو بحر، المحاسن و الأضداد، تحقيق فوزي عطوي، مصدر سابق، ص 226. □